مَنْ يَضْرِب خَيْشُومَهَا؟!!

«حَوْلَ أحداثِ الأمَّة الجارية»

صَنَّفَه

أبو عبد الرحمن

عيد بن أبي السعود الكيال

«باحث بالدكتوراه،
كلية الشريعة، جامعة الأزهر»

مكتبة الكيال

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى شيخنا الجليل الحبيب، العَلَّامَة السُّبْكِي المُعَاصِر، من يَرَى الفتنة وهي مقبلة، فيحذر الناس منها، أرسل اللَّه صوته إلى كل حَدَبٍ وصوب، وهدى به من الضلالة، وبصَّر به من العمى، مُعَلِّم الناس الخير، أحسنُ من نظَّر لهذه الفتنة في بلدنا، د. محمد سعيد رسلان، حفظه اللَّه، وثبَّت قَدَمَه على الجادَّة الصحيحة الحقة.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد للَّه نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ باللَّه تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده اللَّه فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم تسليمًا كثيرًا، بلغ الرسالة وأدى الأمانة، ونصح للأمة، فكشف اللَّه به الغُمَّة، فتركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، فالحمد للَّه أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا.

أما بعد: فهذه بفضل اللَّه ومَنِّه والذي لا تتم الصالحات إلا به سبحانه، الرسالة الرابعة في سلسلة تصحيح المعتقد، وقد نفدت طبعات الرسائل الثلاث وأعَدْتُ طبعها أكثر من مرّة، وذلك مما دفعني لإكمال البيان بهذه الرسالة الرابعة،

لا سيما وقد وصل الحال بالأمة إلى مُنْحًى خطير، ليس له من دون اللَّه كاشفة، فأبدأ فأقول:

إنه لا ينبغي للدعاة إلى اللَّه على بصيرة وفقه وفهم وعلم، أن ينفصلوا عن واقع الأمة والتعبير عنه، وذلك حتى لا يكون الدعاة في واد وأمتهم في واد آخر، وتتعطل مَهَمَّةُ التبليغ والبيان، وتفقد الدعوة إلى اللَّه أصلها الأم؛ فإنهم المرآة الحقة لأمتهم ومجتمعاتهم، سواء من خلال المنبر أو الكتاب، لا كما يقول العامة وأهل الأهواء: المسرح والسينما مرآة المجتمع، هداهم اللَّه.

وربنا ﷻ قد خلقنا وهو أعلم بنا من أنفسنا، ويعلم ما يصلحنا، وما يفسدنا، أكثر من أنفسنا، قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤]؟! بلى ربنا تباركت وتعاليت، وعليه، فهو سبحانه الذي يبين لنا ما تستقيم به أمورنا، ولا تستقيم إلا به.

فمن أخذ البيان والتِّبْيان من اللَّه ورسوله ﷺ فقد أوى إلى ركن شديد، ومن رَكَنَ إلى أخذه من غير الكتاب والسنة فهو على شَفَا جُرُفٍ هارٍ ينهارُ به في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ [آل عمران: ١٣٨].

روى أبو نعيم في حلية الأولياء عن الإمام الشعبي أنه قال في تفسير الآية (٥٧٩٤):

«بيان للناس من العمى، وهدى من الضلالة، وموعظة من الجهل».

والبيان كما قال اللغويون هو: إظهار المعنى وإيضاح ما كان مستورًا قبله، فهو لغة يستعمل في الكشف والظهور والإظهار عن الخفي المبهم، أي هو إخراج الشيء من حيّز الإشكال إلى حيّز التجلي والوضوح، والبيّنة: الدَّلالة الواضحة عقلية كانت أو محسومة، ويسمى ما يُبيَّن به تبيانًا، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]، وقال تعالى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وقال سبحانه: ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ [الزخرف: ٦٣] وقال: ﴿ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥] وقال ﷻ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤] وقال: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْۢ

بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢] وقالوا: البيان الكشف عن الشيء، وهم أعم من النطق المختص بالإنسان وذلك بظهور الآيات والعلامات المبيّنة للناس من غير الكلام، وسمّى الكلام بيانًا؛ لكشفه عن المعنى المقصود إظهاره، وسُمّيَ ما يُشْرحُ به المُجْمل والمبهم من الكلام بيانًا، نحو قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة: ١٩] ويقال بيّنته وأبنته إذا جعلت له بيانًا يكشفه، نحو قوله: ﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [ص: ٧٠] (المفردات في غريب القرآن للأصبهاني (ص: ٦٨)، القاموس المحيط (٤/ ٢٠١) التعريفات للجرجاني (٤٠-٤١)).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية كما في مجموع الفتاوى: (٤/ ٥٧):

«وعامة هذه الضلالات إنما تَطْرُق من لم يعتصم بالكتاب والسنة، كما كان الزهري يقول: كان علماؤنا يقولون: الاعتصام بالسنة هو النجاة.

وقال مالك: السنة سفينة نوح، من ركب نجا، ومن تخلّف غرق» اهـ.

وقال الإمام سهل بن عبد اللَّه التستري فيما رواه أبو نعيم في الحلية (١٤٩١٣): «أيُّما عبد قام بشيء مما أمره اللَّه به من أمر دينه فعمل به، وتمسك به، فاجتنب ما نهي اللَّه تعالى عنه، عند فساد الأمور، وتشويش الزمان، واختلاف الناس في الرأي والتفريق، إلا جعله اللَّه إمامًا يُقتدى به، هاديًا مهديًا، قد أقام الدين في زمانه، وأقام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا الغريب في زمانه، الذي قال رسول اللَّه ﷺ: «**بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ**»[1] وما من عبد دخل في شيء من السُّنة، وكانت نيَّته متقدِّمة في دخوله للَّه، إلا أخرج الجهل من سرِّه شاء أو أبى؛ بتقديمه النيَّة، ولا يَعْرفُ الجهل إلا عالم فقيه زاهد عابد حكيم».

وقال: (١٤٩٣٢): «من كان اقتداؤُه بالنبي ﷺ، لم يكن في قلبه اختيار لشيء من الأشياء، ولا يحول قلبه سوى ما أحب اللَّه ورسوله ﷺ».

ومثله ما قاله الجُنَيْدُ بن محمد فيما رواه في الحلية: (١٥٢١٦) قال: «علمنا مضبوط بالكتاب والسنة، من لم

(١) مسلم: (١٤٥).

يحفظ القرآن، ولم يكتب الحديث، ولم يتفقه، لا يُقتدى به».

كذلك روى أبو نعيم في حلية الأولياء عن أبي عثمان سعيد بن إسماعيل (١٥١٨١):

«لما تغير عليه الحال وقت موته، مَزَّق ابنه أبو بكر قميصًا كان عليه، ففتح أبو عثمان عينيه وقال: يا بُنَيَّ، خلاف السُّنَّة في الظاهر، رياء في الباطن».

وقال شيخ الإسلام[1] أبو عثمان الصابوني في عقيدة السلف وأصحاب الحديث (ص: ٢٩٧): «العلم هو السنة، والجهل هو البدعة».

وروى المروزي في كتابه السنة عن عمر بن عبد العزيز الخليفة الموفَّق والعبد الصالح، (٨١): أنه قال: «لو كان بكل بدعة يميتها اللَّه على يدي، وكل سنةُ ينعشها اللَّه على يدي بَضعة من لحمي وأنَّ عضوًا من أعضائي سقط معها، حتى يأتي ذلك على نفسي، لكان في اللَّه يسيرًا» وعليه، فإنه ليس للأمة مرجعية تبينيَّة دلالية توضيحية كاشفة مظهره للمبهم والخفي من الأمور إلا الكتاب والسنة بفهم سلفنا الكرام

(١) هكذا وصفه الشيخ الإسلام ابن تيمية رحمهما اللَّه تعالى.

الأطهار[١] صحابة رسول اللَّه ﷺ ومن تبعهم بإحسان، رضي اللَّه عنهم ورضوا عنه، مَنْ شهدوا التنزيل، وسمعوا الكتاب والسنة شفاهة من رسول اللَّه ﷺ، فرأوا ما لم نره، وعلموا ما لم نعلم، وفهموا وفقهوا ما لم نفقه ونفهم، مَنْ كان لهم قدم صدق، مَنْ اختارهم اللَّه لصحبة نبيه وإقامة دينه قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧] وقال: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥] وقال سبحانه: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٢] قال القرطبي في تفسيره عند الآية من سورة الحاقة: «قال ابن عباس: أذن حافظة سامعة وذلك الإعلان».

وقال الضحاك: «سمعتها أذن ووعت».

وقال ابن زيد: «واعية: يحذرون معاصي اللَّه أن يعذبهم اللَّه عليها، كما عذَّب من كان قبلهم، تسمعها فتعيها، إنما تعي القلوب ما تسمع الآذان من الخير والشر من باب الوعي» وقال قتادة: «الأذن الواعية: أذن عقلت عن اللَّه تعالى، وانتفعت بما سمعت من كتاب اللَّه ﷻ »اهـ.

(١) انظر: السلفية والسلفيون على ميزان الشريعة. لراقمه.

وروى أبو نعيم في الحلية عن أبي الحسين بن هند الفارسي قال: **(١٥٥٥٩)**: «المتمسك لكتاب اللَّه هو الملاحظ للحق على دوام الأوقات، والمتمسك بكتاب اللَّه لا يخفى عليه شيء من أمر دينه، بل يجري في أوقاته على المشاهدة لا الغفلة، فيأخذ الأشياء من مَعْدِنِها ويضعها في معدنها».

وقال الإمام القرشيّ المطَّلبي، محمد بن إدريس الشافعي كما في الحلية (١٣٣٣٧): «ما أوردت الحق والحجة على أحد فقبلها منِّي إلا هبته واعتقدت مودَّته، ولا كابر أحد على الحق ودفع الحجة الصحيحة إلا سقط من عيني ورفضته».

قلت: أوَتدري لم سقط من عينيه ورفضه؟!

والجواب فيما قاله الفقيه التابعي عطاء بن أبي رباح كما في حلية الأولياء (٨٤٥٥): قال «بلغنا أن الشهوة والهوى يغلبان العلم والعقل والبيان» نسأل اللَّه السلامة والعافية.

أوَتدري لم سقط من عينيه ورفضه؟!

والجواب فيما قاله مالك بن دينار كما في الحلية (٢٧٥٧): «يا هؤلاء، إن الكلب إذا طُرح إليه الذهب

والفضة لم يعرفهما، وإذا طُرح إليه العظم أكبَّ عليه، كذلك سفهاؤكم لا يعرفون الحق».

أو تدري لم سقط من عينيه ورفضه؟!

والجواب في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ﴾ [الصف: ٥].

قال القرطبي في تفسيره عند الآية: «أي لمَّا مالوا عن الحق: أمال اللَّه قلوبهم عن الهدى، ولما زاغوا عن الطاعة أزاغ اللَّه قلوبهم عن الهداية، ولما زاغوا عن الإيمان أزاغ اللَّه قلوبهم عن الثواب، ولما تركوا ما أُمروا به من احترام الرسول ﷺ وطاعة الرب، خلق اللَّه الضلالة في قلوبهم؛ عقوبة لهم على فعلهم» اهـ.

نسأل اللَّه الهداية والتوفيق وعدم الخذلان فمن ترك البيان والتبيان من اللَّه ورسوله بفهم خِيْرَةِ الأمة سلفنا الكرام، وركن إلى عقول الرجال وآراءهم، واستبدل الأعلى الخير، بالذي هو أدنى في الحضيض الأَوْهَدِ، والهبوط الأسفل والهوة السحيقة، فقد ضل وأضل، وزلَّ وأزل، فهو على شَفَا جرف هار، حتى يرجع إلى رشده.

فإليك هذه الرسالة، التي أسأل اللّه ﷻ أن يجعل لها القبول في قلوب العباد، كما جعل لأخواتها، إنه هو البر الودود العليم الحكيم القيوم المقيت العزيز الرحيم.

وقِوامُ هذه الرسالة على خمسة محاور:

المحور الأول: الحكم على الشيء فرع عن تصوره.

المحور الثاني: ليس كل علم يثمر البركة، ولا كل عالم يُؤخذ بقوله.

المحور الثالث: الناس بين جلال العلم ودناءة الجهل.

المحور الرابع: فتنة الأمة بين صدر الإسلام والواقع المعاصر.

المحور الخامس: من يَضْرِبُ خيشومها ؟!

❊ ❊ ❊

المحور الأول:
«الحكم على الشيء فرع عن تصوُّره»

فعلى وَفْقِ ما قرره أهل العلم، من أن الحكم على الشيء فرع لأصله الذي هو صحة تصوره، وأن المرء لا يستطيع أن يحكم على الشيء بالحرمة أو الوجوب أو الكراهة أو الندب أو الإباحة، أو بكونه سنة أو بدعةٍ، لا يكون له ذلك، إلا بعد حسن تصور الأمر المراد الحكم عليه، تصورًا صحيحًا مستقيمًا، فيعلم حقيقته، وماهيَّته، أي ما هو؟ ثم بعد ذلك يحكم عليه. ومن ثَمَّ . فإن أخطأ في تصوره، أخطأ في حكمه؛ لأن ما بني على باطل فهو باطل، وإن أصاب في تصوره أصاب في حكمه عليه.

روى الحافظ ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (صحيح الجامع) عن إياس بن معاوية أنه قال (١٦١٠):

«إن الشيء إذا بني على عوج لم يكد يعتدل».

ورواه الخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه (١١٥٠) ولفظه:

«إن البناء إذا بُني على غير أُسٍّ لم يكد يَعتدل».

والأُس: الأصل.

ومما يقوى ويساعد على صحة التصور وحسنه: ثراء المادة العلمية عامة، وفي موضوعنا والشرعية خاصة، مع الفهم الصحيح السديد، الذي يؤتيه اللَّه عباده المؤمنين خاصة ثم حُسن إنزاله على الواقع المعاصر بما يناسبه ويلائمه، إنزالًا صحيحًا مُوَفَّقًا.

وهذا ما أوضحه التابعي الجليل فيما رواه أبو نعيم في الحلية، حيث قال الحسن البصري (١٨٢٥): «إن العالم يرى الفتنة وهي مقبلة، ويراها الجاهل وهي مدبرة».

وعلى سبيل ضرب المثال التوضيحي:

١- ما رواه أبو نعيم في حلية الأولياء عن الحسن البصري قال (١٨٤٨): «إن المؤمنين قوم أوثقهم القرآن وحال بينهم وبين هلكتهم، إن المؤمن أسير في الدنيا، يسعى في فكاك رقبته، لا يأمن شيئًا حتى يلقى اللَّه ﷻ، يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه وبصره ولسانه وجوارحه» فهذا تصور صحيح لسبب هلاك المؤمنين ونجاتهم، فمن أوثق نفسه بالقرآن، مؤتمرًا بأوامره، منتهيًا عن نواهيه، وقَّافًا عند حدوده، فقد

أخذ سبيل النجاة، وحال بين نفسه وبين هلاكها، فلما كان التصور صحيحًا، كان فرعه وهو الحكم صحيحًا بصحة أصله.

٢- كذلك ما رواه ابن أبي شيبة في كتاب الفتنة من المصنف عن طارق بن شهاب قال: (٣٨٥٠٢) «جلد خالد ابن الوليد رجلًا حدًّا، فلما كان من الغد جلد حدًّا آخر، فقال رجل: هذه واللَّه الفتنة؛ جلد أمس رجلًا في حدّ، وجلد اليوم رجلًا في حدّ!

فقال خالد: ليس هذه الفتنة، إنما الفتنة أن تكون في أرض يُعمل فيها بالمعاصي فتريد أن تخرج منها إلى أرض لا يُعمل فيها بالمعاصي فلا تجدها».

وهنا نجد أن الرجل قد تصور الفرع أصلًا، فحكم على تصوره، في حين أن خالد بن الوليد ﷺ تصور أصل الفتنة، فكان حكمه أصوب وأسدَّ وأجمع وأشمل.

٣- ومن الأمثلة أيضًا، ما قاله التابعي العالم عون بن عبد اللَّه بن عتبة كما في الحلية (٥٥٥٣) قال: «كان الفقهاء يتواصون بينهم بثلاث، ويكتب بعضهم إلى بعض: من عمل

لآخرته كفاه اللَّه دنياه، ومن أصلح سريرته أصلح اللَّه علانيته، ومن أصلح ما بينه وبين اللَّه، أصلح اللَّه ما بينه وبين الناس».

فلما كان التصور لأمر الدين والدنيا عامة صحيحًا، كانت الوصية التي هي الفرع عن الأصل سديدة صالحة؛ فما خلقنا اللَّه إلا لعبادته بما شرع اللَّه ورسوله، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] والدنيا ممرٌّ يتزود به العبد للآخرة، فمن أراد الدنيا فعليه بعمل الآخرة كما قال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: ١٣٤]، ومن أصلح ما بينه وبين اللَّه، كان الجزاء من جنس العمل، أصلح اللَّه ما بينه وبين الناس، ومن أصلح ما بينه وبين الناس بفساد ما بينه وبين اللَّه، أفسد اللَّه له أمره كله، ومن أرضى اللَّه - ولو بسخط اللَّه، رضي اللَّه عنه وأرضى عنه الناس، ومن أرضى الناس بسخط اللَّه، سخط اللَّه عليه وأسخط عليه الناس.

٤- كذلك ما رواه أبو نعيم في الحلية (١٥٠٢١) عن الإمام سهل التستري قال:

«لابد للخلق أن يعبدوا شيئًا، من لا يعبد اللَّه، فلابد له

من عبادة شيء، ومن لا يطيع اللَّه فلابد له من أن يطيع شيئًا، ومن لم يتولَّ اللَّه فلابد له من أن يتولَّ شيئًا غير اللَّه، وكذلك جميع الأشياء؛ ولذلك خلقهم، ليس وراء اللَّه منتهى هو نهاية ينتهى إليه، ليس له وراء، ليس وراء اللَّه وراء، وهو وراء كل شيء، جل اللَّه وعزَّ شأنه».

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ [الحديد:٣] وهذا من أصح التصوُّرات؛ فقد فُطِرَ العبدُ على أن يعبد شيئًا، فمن زاغ عن اللَّه بما قدمت يداه، فطاعته وموالاته ومعاداته وحبه وبغضه لغير اللَّه، فصحّ استنباطه لصحة تصوره.

ومن هنا نعلم وجه عبادة الناس لكبرائهم، وذلك بتقديم آرائهم بين يدي اللَّه ورسوله ﷺ.

٥- كذلك من أصح الاستنباطات ومن ثم أصح الأحكام، ما رآه عمر بن عبد العزيز رحمه الله لما أرسل إلى عامله ينصحه مبيّنًا له أسباب الخير والشر فقال كما في الحلية (١٣٠٧١):

«سلام عليك، فإن أهل الكوفة قد أصابهم بلاء وشدة وجور في أحكام وسنن خبيثة سنَّها عليهم عمَّال سوء، إن

قِوام هذا الدين العدل والإحسان، فلا يكونن شيء أهم إليك من نفسك أن توطِّنها لطاعة اللَّه؛ فإنه لا قليل مع الإثم».

فأرجع، رَحِمَهُ اللَّهُ، إقامة هذا الدين، وإقامة العدل والإحسان، وإقامة البلاد والعباد، ودفع البلاء والشدة والجور والأحكام الخبيثة وعمال السوء، كل ذلك أرجعه إلى شيء واحد وهو قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٤١]، وقال: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]، وقال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنفال: ٢٥].

٦- كذلك ما رواه الإمام الآجري في الشريعة عن إمام أهل الشام الأوزاعي قال (١٣٣): «عليك بآثار من سلف وإن رفضك الناس، وإيَّاك وآراء الرجال وإن زخرفوا لك بالقول» فانظر إلى قوله: «وإن رفضك الناس» مع أنه أمره باتباع الآثار؛ أي: باتباع الحق المبين الذي لا حقَّ غيره، ولكن لما حَسُن تصوره لغربة أهل الحق، وكثرة أهل الباطل، وغلبتهم على أهل اللَّه وخاصته، وعُلوّ كلمتهم وذيوعها

وانتشارها مع قبول الناس للباطل، كان حكمه في غاية القوة، وكانت نصيحته مُسدَّدة موفقة، وما هذا كله إلا من حسن التصور الذي لا يؤتاه أي أحد.

٧- ومثله ما رواه الدارمي في سننه عن عبد اللَّه بن مسعود (٢١٣) قال: «لغير الدجال أخوف عليكم من الدجال، أمور تكون من كبرائكم، فأيما مُرِيَّة أو رجيل أدرك ذلك الزمان، فالسمت الأول، السمت الأول، فإنكم اليوم على الفطرة (وفي رواية) على السنة».

ووجه حسن التصور هنا: أن الدجال معلوم لا خفاء فيه وقد بيَّن رسول اللَّه ﷺ الأمر فيه بيانًا شافيًا، فلا خوف منه على المؤمن، إنما الخوف من أمور تكون من كبراءنا، وعلماءنا لا يظهر فيها وجه الباطل إلا بكثير نظر وتأمل؛ فلذلك نصح: إذا اختلطت الأمور واشتبهت، فعليكم بالأمر الأول، والهدي الأول، الأمر العتيق، الضابط الذي لا يطيش.

لما سُئل حمدون القصَّار، كما في حلية الأولياء (١٥١٠٦): ما بال كلام السلف أنفع من كلامنا؟! قال: «لأنهم تكلموا لعزِّ الإسلام، ونجاة النفوس، ورضاء

الرحمن، ونحن نتكلم لعزِّ النفس، وطلب الدنيا، وقبول الخلق».

كذلك روى عن علي بن الفضيل بن عياض أنه قال (١٤٣٦٠):

«يا أبتِ ما أحلى كلام أصحاب محمد ﷺ، فقال: يا بنُي: وتدري لم حلا؟ قال: لا يا أبت. قال: لأنهم أرادوا اللَّه به».

٨- كذلك روى الخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه (٣٨٤): عن عبد اللَّه بن الحسن، وكان يكثر الجلوس إلى ربيعة، فتذاكروا يومًا السنن، فقال رجل كان في المجلس: ليس العمل على هذا، فقال عبد اللَّه: «أرأيت إن كثر الجهال حتى يكونوا هم الحكام، أَفَهُم الحجة على السنة؟!» قال ربيعة: «أشهد أن هذا كلام أبناء الأنبياء».

وربيعة، هو ربيعة الرأي شيخ الإمام مالك رحمهم اللَّه.

فلما ضل الرجل في تصوره الفاسد وهو أن العبرة بقبول النصوص والأدلة عمل الناس، فسد حكمه وأخطأ فيه، فأصلح له عبد اللَّه التصور ليصلح له الحكم، فصوَّبه ربيعه.

٩- كذلك روى الدارمي في سننه عن الحسن البصري قال (٢١٦):

«سنتكم واللَّه الذي لا إله إلا هو بينهما، بين الغالي والجافي، فاصبروا على سنتكم رحمكم اللَّه، فإن أهل السنة كانوا أقل الناس فيما مضى فهم أقل الناس فيما بقي، الذين لم يذهبوا مع أهل الإتراف في إترافهم، ولا مع أهل البدع في بدعهم، وصبروا على سننهم حتى لقوا ربهم، فكذلك إن شاء اللَّه فكونوا».

فحكم حكمًا صحيحًا وهو أن التمسك بالسنة هو النجاة من البدع والمحدثات، والصبر على أمرها ونهيها، وبني ذلك الحكم على تصورٍ صحيح، وهو حسن الظن باللَّه ورسوله، الذي فقدته الأمة، وأحسنت ظنَّها بعقول الرجال، فإلى اللَّه المشتكى.

ومن هنا ومن هذا المنطلق، من الناس من وصف الفتنة العظيمة الدهماء المُجَلِّلة بالثورة المباركة، فعلى ما تصوره كان حكمه، ولن يستشعر خطأ حكمه وتصوره حتى يرى ثمار الداهية المجللة!!!.

ذكر القرطبي في تفسيره عند سورة الأنعام عند الآية (١٥٣) ما رواه الطبري بسنده في كتاب (آداب النفوس):

«أن رجلًا سأل عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه عن الصراط المستقيم؟ فقال: تركنا محمد ﷺ في أدناه، وطرفه في الجنة، وعن يمينه جوادٌّ[1] وعن يساره جوادٌ، وثَمَّ رجال يدعون من مرَّ بهم، فمن أخذ في تلك الجواد انتهت به إلى النار، ومن أخذ الصراط انتهى به إلى الجنة، ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]» اهـ.

فلا يكون التصور الحق إلا على السبيل الحق.

قال تعالى حاكيًا عن قارون: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾ [القصص: ٧٩] (وهم العامة من جُهَّال الناس) فردَّ عليهم الذين يعلمون تأويله وتفسيره ويحسنون تصوُّره. ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [القصص: ٨٠].

---

(١) جمع: جادة، وهو الطريق.

قال ابن كثير في تفسيره عند الآية: «فلما سمع مقالتهم أهل العلم النافع قالوا لهم: جزاء اللَّه لعباده المؤمنين الصالحين في الدار الآخرة خير مما ترون من حظ الدنيا» اهـ.

قلت: فلما أتى تأويله وخسف اللَّه بقارون وماله وجاهه الأرض ووقعت الهلكة والدمار، رأى الناس العاقبة للفتنة التي رآها أهل العلم وهي مقبلة، قال تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [القصص: ٨١ - ٨٢] فظهر أنه لا يثبت في الفتن إلا أهل العلم ومن سار بهديهم واقتفى آثارهم، وهم الذين لا يتغير رأيهم بعد الفتنة عن قبلها، فلا تضطرب فتاويهم، بل هم بأقدامهم الراسخة على الحق ثابتون سائرون قُدُمًا، لا يضرُّهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى يأتي أمر اللَّه، فإذا هلك العلماء هلك الناس بهلاكهم.

روى ابن أبي شيبة في المصنف من كتاب الفتن، عن هلال بن خبَّاب قال: (٣٨٣٦١) سألت سعيد بن جبير: ما علامة

هلاك الناس؟! قال: «إذا هلك علماؤهم».

ولهلاك العلماء وجوه:

أولها وهو ظاهر الكلمة: موتهم، وذلك ما رواه البخاري في صحيحه (٧٣٠٧) ومسلم (٢٦٧٣) عن عبد اللَّه بن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن اللَّه لا يقبض العلم انتزاعًا من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبق عالمًا، اتخذ الناس رُءُوسًا جهالًا، فسئلوا فأفتوا بغير علم؛ فضلوا وأَضلوا**» نسأل اللَّه العافية.

والوجه الثاني: أن يشتروا بآيات اللَّه ثمنًا قليلًا، ويشتروا الدنيا بالآخرة، فيهلك الناس بهلاكهم.

والوجه الثالث: إذا حادوا بالناس عن المنهج القويم والصراط المستقيم الذي كان عليه سلفنا الكرام، وقالوا بآرائهم وقدَّموها على قول الصحابة ومن تبعهم بإحسان من الأئمة، فابتدعوا في الدين ما ليس منه.

ومن ثَمَّ، كان لزامًا معرفة ضابط العلم والعلماء، ما هو؟!

* * *

المحور الثاني:
«ليس كلُّ عِلْمٍ يُثْمِرُ البركة، ولا كلُّ عالمٍ يُؤْخَذُ بقوله»

● أولًا: العلماء صحابة رسول اللَّه ﷺ ومن اقتفى آثارهم فحسب.

روى الحافظ ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله عن عبد اللَّه بن مسعود قال: (٦٩٣): «لا يزال الناس بخير ما أتاهم العلم من أصحاب رسول اللَّه ﷺ».

وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠] قال (٩٧١): «هم الذين هاجروا مع محمد ﷺ».

وروى أيضًا ابن عبد البر في جامعه عن مجاهد قال (٩٦٩): «العلماء أصحاب محمد ﷺ».

وروى أيضًا عن بقية بن الوليد قال: (٧٠٠): «قال لي الأوزاعي: يا بقية! العلم ما جاء عن أصحاب محمد ﷺ

وما لم يجئ عن واحد منهم فليس بعلم».

وروى عن قتادة في قوله: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ [سبأ: ٦] قال (٩٦٧): «أصحاب محمد ﷺ».

قال الحافظ ابن عبد البر في جامعه (٩٦٨): «وكان الأوزاعي يحدِّث عن ابن المسيِّب أنه سُئل عن شيء فقال: «اختلف فيه أصحاب محمد ﷺ ولا رأي لي معهم» قال ابن وضاح: (هذا هو الحق).

قال ابن عبد البر: معناه أنه ليس له أن يأتي بقول يخالفهم جميعًا فيه».

- ثانيًا: العلم هو الآثار:

وروى الحافظ أيضًا في جامعه عن سفيان الثوري قال: «إنَّما الدين الآثار».

وروى الخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه عن ابن مسعود قال: (٣٨٨) «إنَّا نقتدي ولا نبتدي، ونتَّبع ولا نبتدع، وإن أفضل ما تمسكنا بالأثر».

وروى ابن بطة في الإبانة الكبرى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: (١٦٥):

«أيها الناس إنه لا عذر لأحد بعد السنة في ضلالة ركبها حسبها هدًى، ولا في هدًى تركه حسبه ضلالة، فقد بُيِّنت الأمور، وثبتت الحجة، وانقطع العذر».

وروى ابن بطة أيضًا عن عبد اللَّه بن مسعود أنه قال: (١٨٩):

«يجيء قوم يتركون من السنة مثل هذا (يعني: مَفْصِل الأنملة) فإن تركتموهم جاءوا بالطامة الكبرى».

قلت: أبيان بعد هذا البيان؟!

وروى ابن بطة في الكبرى عن الإمام الشعبي أنه قال: (٦٠٩):

«إنما هلكتم حين تركتم الآثار وأخذتم بالقياس» أي: الذي يخالف الآثار من المعقولات الفاسدة.

وروى كذلك ابن بطة في الكبرى عن أبي إسحاق السبيعي عمرو بن ميمون، أحد الأئمة الأعلام من التابعين قال (٤١١):

«إياكم وهذه الزعانف الذين رغبوا عن السنة وخالفوا الجماعة».

وروى ابن عبد البر في جامعه عن عبد اللَّه بن المبارك كان يقول (٩٩٩): «ليكن الأمر الذي تعتمدون عليه هذا الأثر، وخذوا من الرأي ما يفسر لكم الحديث».

وروى الخطيب في الفقيه والمتفقه عن الإمام مالك بن أنس أنه قال: «ما قلت الآثار في قوم إلا كثرت فيهم الأهواء، وإذا قلت العلماء ظهر في الناس الجفاء».

وروى ابن عبد البر عن شريح القاضي أنه قال: (٦٦٧):

«إنما اقتفي الأثر، فما وجدت في الأثر حدثتكم به» أي: فحسب.

وروى الإمام محمد بن نصر المروزي في السنة عن عبد اللَّه بن مسعود أنه قال (٨١): «إنكم اليوم على الفطرة، وإنكم ستُحدثون، ويحدَثُ لكم، فإذا رأيتم محدثة فعليكم بالهدي الأول».

وروى الخطيب البغدادي في (الفقيه والمتفقه) عن ابن عباس قال: (٣٨٠):

«تمتع النبي ﷺ (أي: في مناسك الحج) فقال عروة بن الزبير: نهى أبو بكر وعمر عن المتعة، فقال ابن عباس:

أراكم ستهلكون !! أقول: قال النبي ﷺ، وتقولون: أبو بكر وعمر. (وفي رواية): هذا الذي أهلككم، واللَّه ما أرى إلا سيعذبكم.

فقال عروة: هما واللَّه كانا أعلم بسنة رسول اللَّه ﷺ وأتبع لها منك.

قال الخطيب: قد كان أبو بكر وعمر على ما وصفهما به عروة، إلا أنه لا ينبغي أن يُقَلَّدَ أحدٌ في ترك ما ثبتت به سنة رسول اللَّه ﷺ».

وروى ابن عبد البر عن الإمام مالك أنه قال: (٩٨٠):

«إنما أنا بشر أخطئ وأصيب، فانظروا في رأيي، فلكما وافق الكتاب والسنة فخذوا به، وكلما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه».

قال الإمام الآجري في الشريعة (١/ ١٢٤):

«علامة من أراد اللَّه به خيرًا، سلوك هذا الطريق: كتاب اللَّه، وسنن رسول اللَّه ﷺ، وسنن أصحابه ﷺ، ومن تبعهم بإحسان، وما كان عليه أئمة المسلمين في كل بلد إلى آخر ما كان من العلماء، مثل الأوزاعي، وسفيان الثوري، ومالك

ابن أنس، والشافعي، وأحمد بن حنبل، والقاسم بن سلَّام، ومن كان على مثل طريقتهم، ومجانبة كل مذهب يذمّه هؤلاء العلماء» اهـ.

وروى الخطيب في الفقيه عن الإمام أحمد أنه قال (٥٤٨): «إنما هو السنة والاتباع».

وروى اللالكائي في شرح أصول الاعتقاد عن سفيان الثوري (١١٣) قال: «وجدتُ الأمر الاتباع».

وروى ابن عبد البر في جامعه عن سعيد بن جبير (١٢٨٠) قال: «ما لم يعرفه البدريون فليس من الدين»

- **ثالثًا: الناس عند علمائهم كالصبيان في حجور أمهاتهم.**

روى الحافظ أبو نعيم في الحلية (٤٠٠٧): كان ربيعة بن أبي عبد الرحمن يومًا جالسًا فغطى رأسه، ثم اضطجع فبكى، فقيل له: ما يبكيك؟! قال:

«رياء ظاهر، وشهوة خفية، والناس عند علمائهم كالصبيان في حجور أمهاتهم، ما أمروهم به ائتمروا، وما نهوهم عنه انتهوا» وهذا أمر عظيم!

وروى عن الإمام مالك أنه قال: (٨٨٦٩):

«بلغني أن العلماء يُسْألون يوم القيامة عمَّا يُسألُ عنه الأنبياء».

وسئل سفيان الثوري كما في الحلية (٩٣١٥): أيُّ شيء شر؟! قال: «اللَّهم غَفْرًا، العلماء» أي: إذا فسدوا.

كذلك روى في الحلية عن صالح بن مهران، وكان يقال له الحكيم أنه قال: (١٥٧٢٦): «كل صاحب صنعة لا يقدر أن يعمل في صناعته إلا بآلة، وآلة الإسلام العلمُ، وإذا رأيت العالم لا يتورع في علمه فليس لك أن تأخذ منه».

ولما سُئل حمدون بن أحمد القصار: من العلماء؟ فقال كما في الحلية (١٥١٠٨):

«المستعملون لعلمهم، والمتهمون آرائهم، المقتدون بسير السلف، والمتَّبعون لكتاب اللَّه وسنة نبيِّه محمد ﷺ، لباسهم الخشوع، وزينتهم الورع، وحليتهم الخشية، وكلامهم ذكر اللَّه، أو أمر بمعروف، أو نهي عن منكر، وصمتُهم في آلاء اللَّه ونعمه، نصيحتهم للخلق مبذولة، وعيوبهم عندهم مستورة، يُزهِّدون الخلق في الدنيا،

بالإعراض عنها، ويرغِّبون في الآخرة بالحرص على طلبها».

إن المتأمل في كلام الأئمة المذكور آنفًا، ربيعة، والثوري، ومالك، والحكيم، يُدْرك خطورة الجهل وعدم العلم، والتفريط في معرفة ما لا يسع المسلم جهله، ويعلم أنه لا نجاة للمرء من الفتن إلا بالعلم والمعرفة.

روى أبو نعيم في الحلية عن أبي الدرداء الصحابي وكان من أهل العلم أنه قال (٦٩٥): «مالي أرى علماءكم يذهبون، وجهالكم لا يتعلمون، وأراكم قد أقبلتكم على ما تكفِّل لكم به، وتركتم ما أُمِرتم به».

وروى ابن بطة في الإبانة الكبرى عن ابن مسعود ناصحًا للأمة نصح العالم الربَّاني فقال: (١٩٥): «عليكم بالعلم قبل أن يُقبض، وقبضه ذهاب أهله، عليكم بالعلم؛ فإن أحدكم لا يدري متى يقبض، أو متى يفتقر إلى ما عنده، وستجدون أقوامًا يزعمون أنهم يدعونكم إلى كتاب اللَّه وقد نبذوه وراء ظهورهم، فعليكم بالعلم، وإيَّاكم والتبدُّع والتقطُّع والتعمُّق، وعليكم بالعتيق».

وهي نصيحة كافية شافية في بابها ؛ وذلك للآتي :

١- أنه قد حثَّ فيها الناس على التعلم والتعليم قبل فوات الأوان بقبض العلم وذهابه الذي يأتي بغتة، فكم فقدت الأمة بموت العلماء الرّبانيين كالألباني وابن باز وابن عثيمين وأمثالهم.

٢- وبيَّن أن المرء لا يدري متى يفتقر إلى ما عنده من العلم؛ فإن الفتن تأتي فجأة لا تُمهل الناس ليتسلَّحوا بالعلم فيها، ليواجهوها، فمن لم يأخذ بأسباب العلم قبل الحاجة إليه هلك وأهلك، وضل وأضل.

٣- أن قلَّة العلم وذيوع الجهل وبثَّه بين الناس السبب الأعظم في اتباع الضالين المضلين، ومن ثم في الضلال والهلاك معهم، ويظهر ذلك في قوله : «وستجدون أقوامًا يزعمون» فكثير من الدعاة والمتكلمين في دين اللَّه بين الخلق يزعمون للناس أنهم على الصراط المستقيم وما يدعون الناس إلا إليه، وهم على ضلالة، دعاة على أبواب جهنم، فالجاهل معهم على ما قالوا كالريشة في مهبِّ الرياح المتلاطمة المتلاحقة من كل اتجاه، وكل حَدَب وصَوْب، ولا يعلم ويدرك ما عليه القوم من الضلالة إلا من تحصن

وتسلح بالعلم النافع.

٤- تَكَرُّرُه للحثِّ على التعلم، ووصفه الدواء بالرجوع إلى الأمر الأول العتيق . حتى يحذر المرء بذلك من البدع والمحدثات؛ وذلك من خلال معرفة الأمر الأول، المنهاج الحق، المتمثل في قوله ﷺ الذي عليه العمل سلفًا وخلفًا وتلقته الأمة بالقبول: «**مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي**» رواه الترمذي (٢٦٤١) وقال: حسن غريب، والآجري في الشريعة (٢٣، ٢٤) واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة وصححه (١٤٧) وغيرهم، واصفًا بذلك الفرقة الناجية من بين الفرق، المنهاج الذي به نجاة الأمة، ولا نجاة لها إلا به، وبه تُعلم السنة من البدعة، والهدى من الضلال، والحق من الباطل، والغي من الرشاد، والظلمات من النور، وبه يُوزن كل شيء، به توزن الأقوال والأعمال وما عليه الناس، وبه ينضبط السير على الصراط المستقيم ولا يُعرف هذا المنهج إلا على سبيل التعليم والتعلم، كما قال أبو الدرداء فيما رواه أبو نعيم في الحلية (٦٩٥): «ألا فتعلموا وعلّموا فإن العالم والمتعلم في الأجر سواء، ولا خير في الناس بعدهما».

قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣].

قال العلامة السعدي في تفسيره عند الآية: «هذا تأديب من اللَّه لعباده عن فعلهم هذا غير اللَّائق، وأنه ينبغي لهم إذا جاءهم أمرٌ من الأمور المهمة والمصالح العامة فيما يتعلق بالأمن وسرور المؤمنين، أو بالخوف الذي فيه مصيبة عليهم أن يتثبتوا ولا يستعجلوا بإشاعة الخبر، بل يردُّونه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم، أهل الرأي والعلم والنصح والعقل والرَّزانة، الذين يعرفون الأمور ويعرفون المصالح وضدها» اهـ. قلت: وهم أهل منهج الحق كما مضى.

● **رابعًا: من يُوجِّهُ الناس في النوازل والفتن؟!**

ومن هنا تعلم ويتبيَّنُ لك أنه: لا يصلح للتنظير للأمة والتوجيه لها وضبط أمورها والأخذ بمقاليد الأمور فيها، إلا أصحاب المنهج الحق، من كان على سبيل الآثار بمنهجه السلفي المحض في الاتباع وترك المعقولات والابتداع.

قال الحافظ الإمام الذهبي في ميزان الاعتدال (٤/ ٢٦٠/ رقم ٦٦٨٩) وهو يترجم لإمام المتكلمين والأصوليين وكبيرهم: «الفخر بن الخطيب الرازي صاحب التصانيف، رأس في الذكاء والعقليات، لكنه عَرِيٌّ عن الآثار، وله تشكيكات على مسائل من دعائم الدين، يُورث الحيرة، نسأل اللَّه أن يثبت الإيمان في قلوبنا، وله كتاب السر المكتوم في مخاطبة النجوم، سحر صريح، فلعله تاب من تأليفه إن شاء اللَّه تعالى» اهـ.

قلت: هذا جزاء من ترك الآثار واتبع آراء الرجال.

كذلك قال الذهبي في ميزان الاعتدال وهم يترجم لإمام الحنابلة: أبو الوفاء بن عقيل: (٤/ ٦٦/ رقم: ٥٨٩٢): «أحد الأعلام، وفَرْد زمانه علمًا ونقلًا وذكاء وتفنُّنًا، له كتاب الفنون في أزيد من أربعمائة مجلد، إلا أنه خالف السلف، ووافق المعتزلة في عدَّة بدع، نسأل اللَّه العفو والسلامة، فإن كثرة التبحُّرِ في الكلام ربما أضرَّ صاحبه، ومن حسن إسلام المرء ترْكه ما لا يعنيه» اهـ.

قلت: فكانت سَوْءَةً في وجه هذا العالم أنه خالف السلف في عدة مسائل، ولم يشفع له علمه في العصمة من الزلل،

لماذا؟! لمخالفة المنهج الحق «مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي» فكيف بمن تركه بالكلية وركن إلى التنظير العقلي للناس، الذي يخالف النصوص الصريحة التي لا تحتمل التأويل ولا الصرف عن ظاهرها؟! ما لشيء إلا لمصلحة الدعوة والمسلمين ؟!!!

أينصلح حال الأمة بعين ما نهى عنه اللَّه ورسوله، آلخير في غير: «**مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي**» ؟! آحسن ظن بغير اللَّه وتشكيك وريبة بمنهج اللَّه ورسوله؟! آيُنصر اللَّهُ ورسولهُ بما حرمه اللَّه ورسوله ولم يشرعه لعباده؟! ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [ن: ٣٦ - ٣٧] .

روى البيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٧٦)، والبغوي في شرح السنة من حديث ابن مسعود وجابر مرفوعًا (٤٠٠٦) والحاكم في المستدرك (٢١٣٤ - ٢١٣٥) وصححه ووافقه الذهبي، عن النبي ﷺ قال: «**إن روح القدس نفث في رُوعي أن نفسًا لن تموت حتى تستكمل أجلها، وتستوعب رزقها، فاتقوا اللَّه وأجملوا في الطلب، ولا يحملنَّكم استبطاء الرزق على أن تنالوه بمعصية اللَّه، فإن ما عند اللَّه تعالى لا يُنالُ إلا بطاعته**» .

ويتفرع عن هذه النقطة: الوجوب بشرعية الوسيلة؛ فإن مبدأ الغاية تبرر الوسيلة مبدأ ميكافيلِّي كفري لا يتصل بديننا من قريب أو بعيد، فلا يجوز للمرء إصراره أبدًا وهو يعلم، على طول طريقه ومنهجه، على وسيلة غير شرعية، حرَّمها اللَّه ورسوله، أراد بها الوصول إلى تطبيق شرع اللَّه على خلق اللَّه، فإن هذا لا يستقيم على قانون الرجال، فكيف بشريعة ملك الملوك سبحانه، أيُحرِّمُ الشيء، ثم يجعله سبيلًا وسببًا لطاعته؟!

• **خامسًا: الفقه في الدين خيرٌ من كثير العمل:**

روى البخاري في صحيحه (٧١) ومسلم (١٠٣٧) عن معاوية بن أبي سفيان قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**من يُرد اللَّه به خيرًا يفقهه في الدين**».

وروى الخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه هذا الحديث من عدة طرق.

ثم روى بسنده عن نافع مولى ابن عمر أنه قال (٦٤):

«جاء رجل إلى ابن عمر فقال: يا أبا عبد الرحمن: علمني شيئًا أنال به خيرًا، فقال ابن عمر: (تفقه في الدين) فقال

الرجل : ما أراه فهم عني ، فعاوده ، قال : إنما سألتك أن تعلمني شيئًا أنال به خيرًا . قال ابن عمر : (ويح الآخر ، أليس الفقه في الدين خير من كثير العمل؟! إن قومًا لزِموا بيوتهم فصاموا وصلوا حتى يبست جلودهم على أعظمهم ، لم يزدادوا ؛ بذلك من اللَّه إلا بعدًا)» وهذا معنًى صحيح لا مِرْيَةَ فيه .

وروى الخطيب أيضًا عن عمر بن عبد العزيز أنه قال (٦٦) :

«من عمل على غير علم ، كان ما يُفسدُ أكثر ممَا يصلح»

وروى أيضًا عن مطرف بن عبد اللَّه بن الشخِّير أنه قال (٦٧) :

«العلم أفضل من العمل ، ألا ترى أن الراهب يقوم الليل حتى إذا أصبح أشرك» .

وروى أبو نعيم في الحلية عن قتادة بن دعامة أنه قال (٧٦٤) :

«باب من العلم يحفظه الرجل يطلب به صلاح نفسه وصلاح الناس ، خير من عبادة حول كامل» .

وروى الحاكم في المستدرك (٣١٤) وقال : على شرط

الشيخين، ووافقه الذهبي في التلخيص، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (١٠٢): (رواه الطبراني في الأوسط والبزار بإسناد حسن) عن سعد بن أبي وقاص وحذيفة بن اليمان عن النبي ﷺ قال: «**فضل العلم أحب إلى اللَّه من فضل العبادة** - وفي رواية - **خير من فضل العبادة - وخير دينكم الورع**» والحديث ذكره السيوطي في الجامع الصغير ورمز لصحته (٥٨٦٤)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٣٢٥ / ح:٤٧٨): «رواه الطبراني في الأوسط والبزَّار، وفيه: عبد اللَّه بن عبد القدوس، وثقّه البخاري وابن حبان وضعفه ابن معين وجماعة» اهـ. ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٢١٢).

• سادسًا: الدعوة إلى اللَّه على بصيرة معناها وضابطها:

قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨].

قال أبو الحسن بن فارس في مقاييس اللغة (١/ ٢٥٣):

«الباء والصاد والراء أصلان: أحدهما العلم بالشيء، يقال

هو بصيرٌ به، ومن هذه البصيرة، وهي البرهان، وأصل ذلك وضوح الشيء، يقال بَصُرت بالشيء إذا صرت به بصيرًا عالمًا» اهـ.

وقال الفيروز آبادي في القاموس المحيط (١/ ٣٧٠): «والبصيرة عقيدة القلب، والفطنة والحجة، والتبصر التأمل والتعرّف» اهـ.

والحجة كما قال ابن الأثير في النهاية (١/ ٣٢٩): «الدليل والبرهان» اهـ.

وقال الراغب الأصفهاني في المفردات في غريب القرآن: (ص: ٤٩): «ومنه: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [يوسف: ١٠٨] أي: على معرفة وتحقق» اهـ.

وقال (ص: ١٠٧): «الحجة الدِّلالة الموضحة المبيِّنة للمحجة، والمحجة: المقصد المستقيم» اهـ.

والمقصد السبيل، وعليه، فالدعوة إلى اللَّه على بصيرة: هي الدعوة على علم وعقيدة حقة راسخة في القلب، يُدْعى لها وبها وعليها، بالحجة والدليل والبرهان من الكتاب والسنة، فتقام الحجة لإظهار المحجة التي هي المقصد

المستقيم والطريق القويم وهو صراط اللَّه ورسوله، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣].

قال القرطبي في تفسيره من سورة يوسف الآية (١٠٨): «﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ أي قل يا محمد: هذه طريقتي وسنّتي ومنهاجي، قال ابن زيد، وقال الربيع: دعوتي، وقال مقاتل: ديني، والمعنى واحد، أي الذي أنا أدعو إليه يؤدي إلى الجنة: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ على يقين وحق» اهـ.

وقال ابن كثير في تفسيره عند الآية: «يقول اللَّه تعالى لرسوله ﷺ إلى الثقلين الجن والإنس، آمرًا له أن يُخبر الناس: أن هذه سبيله، أي طريقه ومسلكه وسنته، وهي الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له، يدعو إلى اللَّه على بصيرة من ذلك ويقين وبرهان، وكل من اتبعه يدعو إلى ما دعا إليه رسول اللَّه ﷺ على بصيرة ويقين وبرهان شرعي عقلي، وقوله: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي وأُنَزِّه اللَّه وأجلّه وأعظمه وأقدسه، عن أن يكون له شريك أو نظير أو عديل أو نديد، أو ولد أو والد أو صاحبة، أو وزير أو مشير، تبارك وتقدس وتنزه

تعالى عن ذلك علوًا كبيرًا: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: ٤٤]» اهـ.

وقال القرطبي في تفسيره لسورة الأنعام الآية (١٥٣):
«قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ﴾ هذه آية عظيمة، عطفها على ما تقدّم، فإنه لمّا نهى وأمر، حذَّر من اتباع غير سبيله، فأمر باتباع طريقه، والصراط: الطريق الذي هو دين الإسلام، ﴿مُسۡتَقِيمًاۖ﴾ معناه مستويًا قويمًا لا اعوجاج فيه، فأمر باتباع طريقه الذي طرقه على لسان نبيه محمد ﷺ، وشرعه، ونهايته الجنة، وتشعبت منه طرق، فمن سلك الجادة نجا، ومن خرج إلى تلك الطرق أفضت به إلى النار، قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ أي تميل.

روى الدارمي في مسنده بإسناد صحيح عن عبد اللَّه بن مسعود قال: (خط رسول اللَّه ﷺ يومًا خطًّا ثم قال: «**هذا سبيل اللَّه**» ثم خط خطوطًا عن يمينه وخطوطًا عن يساره ثم قال: «**هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه**» ثم قرأ

هذه الآية)[1].

وهذه السبل تعم اليهودية والنصرانية والمجوسية وسائر أهل الملل وأهل البدع والضلالات من أهل الأهواء والشذوذ في الفروع، وغير ذلك من أهل التعمق في الجدل والخوض في الكلام، هذه كلها عُرْضة للزلل، ومظنَّة لسوء المعتقد، وقال مجاهد: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ قال: البدع، قال ابن شهاب: وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾ [الأنعام: ١٥٩] فالهرب الهرب، والنجاة النجاة، والتمسك بالطريق المستقيم، والسَّنن القويم الذي سلكه السلف الصالح، وفيه المتجر الرابح» اهـ.

وقال ابن كثير في تفسير الآية: «قوله: ﴿فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام: ١٥٣] إنما وحَّد سبيله؛ لأن الحق واحد، ولهذا جمع السبل لتفرُّقها وتشعُّبها، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ

(١) رواه أحمد في المسند (٤١٤٢) وقال العلامة أحمد شاكر: صحيح، والحاكم في المستدرك (٣٢٤١) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي وصححه ابن حبان في صحيحه (٦، ٧، إحسان).

وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ ﴾ [البقرة: ٢٥٧] » اهـ.

قلت: ومقصد ابن كثير: أن اللَّه تعالى وحَّد النور؛ لأن الحق واحد، وجمع الظلمات لضلالها وتفرقها وتشبعها، كما وَحَّدَ السبيل وجمع السبل في الآية الأولى.

قال الشيخ بكر أبو زيد في حكم الانتماء إلى الفرق والأحزاب والجماعات الإسلامية (ص: ١٠٧ - ١٠٨):

«الإسلام مبني على الوحدانية؛ فالرب الخالق المعبود واحد، والرسول واحد، والقبلة واحدة، والحق واحد، فالدعوة إلى ذلك واحدة بسبيل واحدة، والمسلمون حزب واحد، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]، والوشيجة بينهم هي الإسلام، قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: ٢٢] والطريقة الجامعة لذلك، الموصلة إلى اللَّه والدار الآخرة هي الإسلام، ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وهي الشريعة لا غير، قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ

ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمۡ لَن يُغۡنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الجاثية: ١٨ - ١٩] وهذا هو الحق واحد لا يتعدد، ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ﴾ [يونس: ٣٢] ودارهم هي دار الإسلام، وما عداها فلا ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [يوسف: ١٠٨] وعليه، فإن تعدد السبل بتعدد الأحزاب حلٌّ لعُرى الجماعة، وتبديد للسبيل إلى سبل بينهما من الاختلاف والاضطراب ما هو معلوم.

روى أبو داود في سننه (٥٤٧) وابن خزيمة في صحيحه (١٤٨٦) وأحمد في المسند (٢١٦٠٧) والنسائي في المجتبى (٨٤٦) عن أبي الدرداء قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**عليك بالجماعة، فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية**»[1].

وذلك أن السنة والشريعة والمنهاج هو الصراط المستقيم

(١) وروى الحاكم في المستدرك (٩٠٠) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه وقال الذهبي في التلخيص: صحيح، ورواه البيهقي في السنن الكبرى (٣/ ٥٤).

الذي يوصِّل العباد إلى اللَّه، والرسول هو الهادي الخرِّيت[١] في هذه الصراط، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٦] وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٢ - ٥٣] » اهـ.

قلت: بل بتوحيد الدعوة إلى اللَّه على سبيل واحد ومنهج واحد يعمُّ الأمان في شتى بقاع الأرض إنسها وجنها وبهائمها، فإنه من الغريب الذي وصل إلى علمي، وجود حزب يدّعي أنه يمثل السلفية!! جمع بين أعضاه عشرات النصارى !!!.

روى عبد الرزاق الصنعاني في مصنفه في كتاب الفتن عن طاووس، وأبي هريرة موقوفًا، ومرفوعًا إلى النبي ﷺ من حديث أبي هريرة بألفاظ متقاربة **(٢٠٨٤٣ - ٢٠٨٤٤ - ٢٠٨٤٥): «ينزل عيسى ابن مريم إمامًا هاديًا، ومقسطًا عدلًا،**

(١) الدليل الحاذق بالدَّلالة على الطريق (المعجم الوجيز: ١٨٩) أي الماهر المتمكن في ذلك.

يقتل الخنزير، ويكسر الصليب ويضع الجزية، ولا يقبل إلا الإسلام، وتكون الدعوة واحدة لرب العالمين، ويلقى اللَّه في زمانه الأمن، حتى يكون الأسد مع البقر، والذئب مع الغنم، ويلعب الصبيان بالحيَّات، لا يضر بعضهم بعضًا» .

وفي رواية: «**وتكون السجدة واحدة لرب العالمين**» ورواية: «**وتكون الملة واحدة لرب العالمين**» .

نسأل اللَّه العلي القدير أن يجمع شتات المؤمنين، ويوحد تفرقهم وتحزيبهم .

* * *

المحور الثالث:

«الناس بين جلال العلم، ودناءة الجهل»

بوَّب الخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه بابًا سماه: (ذكر تقسيم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أحوال الناس في طلب العلم وتركه) ذكر تحته أثرًا فذًّا لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، اهتم به أهل العلم وشرحوه شرحًا وافيًا، منهم ابن القيم في كتابه مفتاح السعادة، وابن رجب الحنبلي في كتابه كشف الكربة في وصف حال أهل الغربة، وإن كان في سنده ضعفًا فمعناه صحيح جدًّا، فروى الخطيب بسنده عن علي بن أبي طالب قال: (١٧٦):

«يا كُمَيْلُ بن زياد، احفظ ما أقول لك، القلوب أوعية خيرها أوعاها، الناس ثلاثة: فعالم ربَّاني، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجئوا إلى ركن وثيق، العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، العلم يزكو على العمل، والمال تنقصه النفقة، العلم حاكم، والمال محكوم عليه، وصنيعة المال تزول بزواله، محبة

العالم دين يدان بها، تكسبه الطاعة في حياته، وجميل الأحدُوثة بعد موته، مات خزَّان الأموال وهم أحياء، العلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة، ها، إن ها هنا - وأومأ بيده إلى صدره - علمًا، لو أصبت له حملة، بلى! أصبته لَقِنًا غير مأمون عليه، يستعمل آلة الدين للدنيا، يستظهر بنعم اللَّه على عباده، ويحججه على كتابه، أو منقادًا لأهل الحق، لا بصيرة له في إحيائه، يقتدح الشك في قلبه بأول عارض من شبهة، لا ذا، ولا ذاك، أو منهومًا بلذة سلس الانقياد للشهوات، أو فَمُغْرًى بجمع الأموال والادخار، ليسا من دعاة الدين، أقرب شبههما بهما الأنعام السائمة، كذلك يموت العلم بموت حامليه، اللَّهم بلى، لن تخلُوَ الأرض من قائم للَّه بحجة؛ لكي لا تبطل حجج اللَّه وبيِّناته، أولئك الأقلون عددًا الأعظمون عند اللَّه قدرًا، بهم يَدْفَعُ اللَّه عن حججه، حتى يؤدوها إلى نظرائهم، ويزرعوها في قلوب أشباههم، هجم بهم العلم على حقيقة الأمر؛ فاستلانوا ما استوعر منه المترفون، وأنِسُوا بما استوحش منه الجاهلون، وصاحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى، ها ها شوقًا إلى رؤيتهم،

وأستغفر اللَّه لي ولك.

قال الخطيب: هذا الحديث من أحسن الأحاديث معنى، وأشرفها لفظًا، وتقسيم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الناس في أوله تقسيم في غاية الصحة، ونهاية السداد؛ لأن الإنسان لا يخلو من أحد الأقسام الثلاثة التي ذكرها مع كمال العقل، وإزالة العلل، إما أن يكون عالمًا أو متعلمًا أو مُغْفِلًا للعلم وطلبه، ليس بعالم، ولا طالب له.

فالعالم الربَّاني: هو الذي لا زيادة على فضله لفاضل، ولا منزلة فوق منزلته لمجتهد، وقد دخل في الوصف له بأنه ربَّاني في وصفه بالصفات التي يقتضيها العلم لأهله، ويمنع وصفه بما خالفها، ومعنى الرباني في اللغة: الرفيع الدرجة في العلم، العالي المنزلة فيه، وعلى ذلك حملوا قول اللَّه تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾ [المائدة: ٦٣] وقوله: ﴿وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩].

(١٧٧) عن مجاهد قال: (الربانيون: الفقهاء وهم فوق الأحبار).

(١٧٨) وعن سعيد بن جبير في قوله: ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾ قال: (حكماء فقهاء).

(١٧٩) وعن أبي رزين في قوله: ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾ قال: (فقهاء علماء).

(١٨٠) عن ابن الأعرابي قال: (إذا كان الرجل عالمًا، عاملًا، قيل له: هذا ربَّاني، فإن خَرَم عن خَصْلَةٍ منها لم يُقَلْ له رباني).

(١٨١) وبلغني عن أبي بكر بن الأنباري عن النحويين: أن الربانيين منسوبون إلى الربِّ، وأن الألف والنون زيدتا للمبالغة في النسب، كما تقول: لحياني جُمَّاني، إذا كان عظيم اللحية والجمّة.

قال الخطيب: وأما المتعلم على سبيل النجاة: فهو الطالب بتعلمه والقاصد به نجاته من التفريط في تضييع الفروض الواجبة عليه، والرغبة بنفسه عن إهمالها وإطراحها، والأنفة من مجانسة البهائم، وقد نفى بعض المتقدمين عن الناس من لم يكن من أهل العلم.

وأما القسم الثالث: فهم المهملون لأنفسهم، الرَّاضون

بالمنزلة الدنية والحال الخسيسة التي هي الحضيض الأوهد، والهبوط الأسفل، التي لا بعدها في الخمول، ولا دونها في السقوط - نعوذ باللَّه من الخذلان وعدم التوفيق والحرمان - وما أحسن ما شبَّههم الإمام علي بالهمج الرعاع، والهمج: البعوض، وبه يُشبَّهُ دُناة الناس وأراذلهم، والرعاع: المتبدد المتفرق، والناعق: الصائح، وهو في هذا الموضع: الراعي، يقال: نعق الراعي بالغنم يَنْعِقُ: إذا صاح بها، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة: ١٧١] ».

- **الجهل والفتن توأمان:**

إن عامة الفتن من أول فتنة في صدر هذا الدين إلى يوم الناس هذا، إنما كان قِوامُها وعنصرها الجوهري من الناس، القسم الثالث المذكور آنفًا، فهم الحَطَبُ الذي تؤجَّجُ به نار الفتنة، وإن كان مشعلوها دعاة الضلالة، فإن تقصير أصحاب القسم الثالث عن أن يكونوا متعلمين على سبيل نجاة، هو السبب الرئيس لاضطرام النيران في الهشيم، ولو كانوا من القسم الثاني لنجَوْا بما معهم من

العلم؛ الذي هو حصن أمان لأصحابه، وفرقان بين الهدي والضلال والغي والرشاد، والحق والباطل، وليس أدلّ على ما أقول، بما رواه ابن أبي شيبة في المصنف في كتاب الفتن عن أبي مسعود عن حذيفة بن اليمان قال: **(٣٨٤٤٧)**: «أما تعرف دينك يا أبا مسعود! قلت: بلى، قال: فإنها لا تضرُّك فتنة ما عرفت دينك، إنما الفتنة إذا اشتبه عليك الحق والباطل فلم تَدْر أيَّهما تتبع، فتلك الفتنة».

وروى ابن عبد البر في جامعه (١٦٨٥) عن عمر بن الخطاب قال:

«أيها الناس، إنه قد سُنَّت لكم السنن، وفُرضت عليكم الفرائض، وتركتم على الواضحة، إلا أن تضلوا بالناس يمينًا وشمالًا» وأصل ذلك كله، إكمال الدين وتمام الحجة على الخلق.

وروى الترمذي في سننه (٢٦٧٦) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (٣٢، ٤٣) من حديث العرباض بن سارية في الحديث المشهور عن النبي ﷺ، وفيه عند ابن ماجه، أنه ﷺ قال: «**قد تركتم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك**».

قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] وقال: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ [النساء: ١٦٥] وقال سبحانه: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

روى البخاري في صحيحه (١٨٧٨) ومسلم (٢٨٨٥) عن أسامة بن زيد قال: «أشرف النبي ﷺ على أُطُم[1] من آطام المدينة فقال: **هل ترون ما أرى؟ إني لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر**».

فشبَّه ﷺ وقوع الفتن في كثرتها وذيوعها وانتشارها، بسقوط المطر وغزارته وعمومه لكل مكان نزل به.

كذلك روى البخاري في صحيحه (٥٢٣١) ومسلم (٢٦٧١) وابن أبي شيبة (٣٨٢٧٩) من حديث أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال: «**إن من ورائكم أيامًا ينزل فيها الجهل** (وفي رواية: **يبث فيها الجهل**) **ويرفع فيها العلم ويكثر الهرج**». قالوا: يا رسول اللّه وما الهرج؟ قال:

(١) الأطم: بناء مرتفع كالحصن. النهاية لابن الأثير (١/ ٥٧).

«**القتل**» ففي هذا الحديث، ربط ﷺ بين كثرة القتل والفتن العظام من ناحية، ونزول الجهل وبثه، ورفع العلم من ناحية أخرى؛ ليُعلم أن الدعوة إلى اللّه على غير بصيرة وفقه بواقع الأمة والجهل بما تؤول إليه الأمور، يثمر الفتن التي من آثارها كثرة القتل.

يؤكد ذلك ما رواه عبد الرزاق في المصنف في كتاب الفتن عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال (٢٠٧٤٤): «**أخاف عليكم الهرج**»، قالوا، وما الهرج؟ يا رسول اللّه! قال: «**القتل**»، قالوا: وأكثر مما نقتل اليوم، إنَّا لنقتل في اليوم من المشركين كذا وكذا، فقال: «**ليس قتل المشركين، ولكن قتل بعضكم بعضًا**»، قالوا: وفينا كتاب اللّه؟! قال: «**وفيكم كتاب اللّه**». قالوا: ومعنا عقولنا؟! قال: «**إنه يُنْتَزع عقول عامة ذاكم الزمان، ويخلف هباءً من الناس يحسبون أنهم على شيء، وليسوا على شيء**».

فإذا أسقطت هذه الأحاديث على واقع الأمة الآن، عرفت أصل المسألة .

كذلك روى عبد الرزاق في المصنف (٢٠٧٤٢) عن ابن مسعود قال: «كيف بكم إذا لبستكم فتنة يربو فيها

الصغير، ويهرم فيها الكبير، يتخذها الناس سنة، إذا تُرك منها شيء قبل تُركت السنة، قالوا: ومتى ذلك يا أبا عبد الرحمن؟! قال: إذا كثرت جهالكم، وقلَّت علماؤكم[1]، وكثرت خطباؤكم، وقلت فقهاؤكم، وكثرت أمراؤكم، وقلَّت أمناؤكم، وتُفقِّه لغير الدين، والتمست الدنيا بعمل الآخرة».

نسأل اللَّه السلامة والعافية.

وقوله: (وتُفُقِّه لغير الدين): أي يُلتمس بالعلم والفقه غير اللَّه، يراد به دنيا، وهذا من أشد الجهل، والجرأة على اللَّه تعالى، وهذا من أوجه هلاك العلماء، والذي به يهلك بهم الناس، كما مرَّ من قبل في أثر سعيد بن جبير.

وروى عبد الرزاق في المصنف في كتاب الفتن (٢٠٧٤٣) عن سُليم بن قيس الحنظلي قال: خطب عمر فقال: «إنَّ أخوف ما أتَخوَّف عليكم بعدي، أن يؤخذ الرجل منكم البريء، فيؤشر بالمنشار كما يؤشر الجزور، ويشاط لحمه كما يُشاط لحمها، ويقال عاص وليس بعاص، فقال عليٌّ وهو تحت المنبر: ومتى ذلك؟ يا أمير المؤمنين! أوَبما تشتدُّ

(١) وهم العلماء الربانيون، على ما ذكره الخطيب في أثر عليّ.

البلية، وتظهر الحمية، وتسبى الذرية، وتدقهم الفتن كما تدق الرحا ثُفْلَهَا، وكما تدق النار الحطب؟ قال: ومتى ذلك يا علي؟! قال: إذا تُفُقِّه لغير الدين، وتُعلِّم لغير العمل، والتمست الدنيا بعمل الآخرة».

وروى ابن أبي شيبة في المصنف في كتاب الفتن عن حذيفة بن اليمان قال: (٣٨٧٢٥):

«إن أخوف ما أخاف عليكم أن تؤثروا ما ترون على ما تعلمون، وأن تضلوا وأنتم لا تشعرون».

فهنا وفي هذا الأثر، أمرٌ يتعلق بالهوى والضلال على علم، وهذا من أجهل الجهل، ومعنى كلامه: لا تختاروا وتُفضلوا ما تراه أعينكم ويناسب أنفسكم الأمَّارة بالسوء، وعقولكم الناقصة مما يخالف ما تعلمون من كتاب ربكم وسنة نبيكم ﷺ، فإن ذلك من أكثر الأسباب لهلاك الأمم.

روى أبو نعيم في الحلية عن حذيفة قال (٩١٧):

«ما الخمر صرفًا بأذهب بعقول الرجال من الفتنة».

كذلك روى ابن أبي شيبة في المصنف (٣٨٤٩٨) وأبو نعيم في الحلية (٩٠٨) عن حذيفة قال: «إن الفتنة

لتُعرض على القلوب، فأي رجلٍ أُشْرِبها نقط على قبله نقط سود، وأي رجلٍ أنكرها نُقِطَ على قلبه نقطة بيضاء، فمن أحب أن يعلم أصابته الفتنة أم لا فلينظر فإن رأى حرامًا ما كان يراه حلالًا، أو يرى حلالًا ما كان يراه حرامًا فقد أصابته».

وفي هذا الأثر ضابط قوي لمعرفة من يثبت في الفتن ممن تضطرب أقواله ومواقفه فيها.

❊ ❊ ❊

المحور الرابع:
«فتنة الأمة بين صدر الإسلام والواقع المعاصر»

روى ابن أبي شيبة في كتاب الفتن عن حذيفة بن اليمان قال (٣٨٢٦٩):

«كان رسول اللَّه ﷺ يسأله الناس عن الخير، وكنت أسأله عن الشر وعرفت أن الخير لن يسبقني، قلت: يا رسول اللَّه: هل بعد هذا الخير من شر؟ قال: «**يا حذيفة! تعلم كتاب اللَّه واتبع ما فيه**». قالها ثلاثًا، قلت: يا رسول اللَّه: هل بعد هذا الخير شر؟ قال: «**فتنة وشر**»، قلت: يا رسول اللَّه هل بعد هذا الشر خير؟ قال: «**يا حذيفة! تعلم كتاب اللَّه واتبع ما فيه**». ثلاث مرات. قلت: يا رسول اللَّه: هل بعد هذا الخير شر؟ قال: «**فتنة عمياء صماء عليها دعاة على أبواب النار، فأن تموت يا حذيفة وأنت عاض على جذل خير من تتبع أحدًا منهم**».

وفي رواية: «**دعاة الضلالة، فإن رأيت خليفة فالزمه، وإن نهك ظهرك ضربًا وأخذ مالك، فإن لم يكن خليفة، فالهرب حتى يأتيك الموت وأنت عاض على شجرة**».

وكأنه ﷺ يشير إلى أن منهج دعاة الضلالة يدعو إلى نبذ الخليفة وعدم لزومه والله أعلم.

وروى البخاري في صحيحه (٧٠٦٨):

أنه لما اشتكى الناس ظلم الحجاج إلى أنس قال لهم:

«**اصبروا، فإنه لا يأتي عليكم زمان إلا الذي بعده شرٌّ منه حتى تلقوا ربكم، سمعته من نبيكم ﷺ**».

وروى ابن أبي شيبة (٣٨٤٥٠) في المصنف وابن خزيمة في صحيحه (١٥٧٣) والنسائي في المجتبى (٨٨٢) عن أبي بن كعب قال: «هلك أهل هذه العقدة ورب الكعبة (وعند النسائي: الأمراء) هلكوا وأهلكوا كثيرًا، أما والله ما عليهم آسى، ولكن على من يهلكون من أمة محمد ﷺ».

ووجه الهلاك الذي يهلك به الناس بسبب الأمراء، يُفسره الأثر الذي رواه ابن أبي شيبة، قبيل هذا الأثر (٣٨٤٤٩) عن عبد الله بن مسعود قال:

«أيها الناس، إن هذا السلطان قد ابتليتم به، فإن عدل كان له الأجر وعليكم الشكر، وإن جار كان عليه الوزر وعليكم الصبر».

فكان هلاك الناس مع الحكام الظلمة الجائرين إنما وجهه عدم الصبر عليهم وعلى ظلمهم، فإذا كان ذلك كذلك ولم يصبروا، خرجوا عليه، فكان خروجهم هلاكًا لهم وتركًا للسنة.

روى ابن أبي شيبة في المصنف عن أبي صالح الحنفي قال (٣٨٣١٥):

«جاء رجل إلى حذيفة وأبي مسعود الأنصاري وهما جالسان في المسجد، وذلك بعد أن طرد أهل الكوفة إمامَهم، فقال الرجل: ما يُجلسكم وقد خرج الناس؟! فواللَّه إنَّا لعلى السنة. فقال حذيفة وأبو مسعود الأنصاري: كيف تكونون على السنة وقد طردتم إمامكم؟».

فلما خالف الناس نبيهم ﷺ وتأوَّلوا الخروج، وكفَّروا الحكام، وقدموا ما تأوَّلته عقولهم على النصوص الصحيحة بالنهي عن الخروج، وقالوا النصوص صحيحة صريحة غير أنها لا تنزل على هؤلاء الحكام؛ فهم ليسوا بحكام أصلًا، وتركوا يقين النصوص، وأخذوا بتأويلاتهم المشكوك فيها، وقدَّموا العقل على النقل كانت بحار الدمار، واضطراب الأمور، وفساد الدين والدنيا.

• أول فتنة في الصحابة الخروج على عثمان ثم قتله :

إن المتأمل لسبب الفتنة التي أدت إلى قتل مئات الآلاف من الصحابة والتابعين، يجدها ما حدث في الطعن على ولاية عثمان وإمرته والطعن في وزراءه وولاته، الذي انتهى بالحصار على الخليفة الراشد وقتله، ثم فُتحت أبواب الفتن على مِصْرَاعَيْهَا، وطَالَبَ مَنْ طَالب من الصحابة بالثأر والقصاص من قتلة عثمان، ثم كانت موقعة الجمل وصفين وكان ما كان مما تقشعر من ذكره القلوب والأبدان والعقول السليمة، ورأى الناس ما رآه النبي ﷺ من قبل، من مواقع الفتن خلال بيوتهم كمواقع القطر، وسالت الدماء في الطرقات وقَتَلَ الصحابة بعضهم بعضًا ؛ فَمِنْ عِظَمِ الفتنة أثَّرت حتى على أفضل الأمة علمًا وعقلًا ورأيًا .

ففيما ذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء (٥/ ٢٩ : ت : ٣٤٢) عن عبد اللَّه بن عُكيم الجهني أنه قال لما قتل عثمان : «لا أعين على دم خليفة أبدًا بعد عثمان، فقيل له : يا أبا مَعْبَد! أوَ أعنت عليه؟! قال : كنت أعُدُّ ذكر مساويه عونًا على دمه» .

بل إنه في بعض الروايات : حثا التراب على رأسه وظل

يقول: قتلتُ عثمان، قتلتُ عثمان، لما ظهر تأويل خروجهم وطعنهم في ولايته وسلطانه علنًا أمام العامة، وشُحِنت القلوب بذلك حتى وجدت بُغيتها في خلعه وطرده، فلما وقع الشرُّ ندموا وحثوا التراب على رءوسهم حسرة وندمًا وخذلانًا.

• **فائدة مهمة:**

قد يقول بادي الرأي من الناس: أتسوُّون بين الخليفة الراشد المشهود له بالجنة والصلاح من رسول اللَّه ﷺ، بهؤلاء الحكام الذين لا يُطَبِّقون شرع اللَّه؟! وعليه، فإن علة هذه الفتنة على زعمهم صلاح عثمان؟!

قلت: هذا لا دليل عليه، بل استنباط فاسد لا تشهد له النصوص، إنما العلة على ظاهر النصوص هو نفس الخروج وخطورته، ومكانة ولي الأمر عامة، بعيدًا عن الصلاح والفساد، فلو كان الحاكم صالحًا عند الناس فما الذي يدفعهم للخروج عليه؟! وكلام أهل العلم في عدم الخروج على الحاكم الكافر كفرًا بواحًا ؛ إذا أدى ذلك إلى مفسدة أكبر من الصبر عليه معلوم في كتاب أهل العلم، واقرءوا إن شئتم فتح الباري لابن حجر، وشرح مسلم للنووي

وغيرهما، وما حدث في ليبيا وسوريا هذا العام يشهد على ما قلت؛ فإن الناظر إلى عشرات الآلاف من المسلمين الذين قُتِلُوا برصاص الحكام وأعوانهم، ثم بقذائف المشركين الذين احتلوا ليبيا وفي طريقهم إلى سوريا وغيرها، وما حدث من سَلْبٍ لخيرات البلاد ونزع ما في أيدي المسلمين من البترول وغيره من الثروات، والناظر إلى رفع الأمن وذيوع الرعب والخوف والاغتصاب والسرقة والقتل، يقتل المسلمون بعضهم بعضًا، وحوادث اغتصاب السيارات التي تحدث يوميًّا في طرقات المدينة والقرى والمحافظات والسلب والنهب، واقتحام مراكز الشرطة وقتل ضباطها وعساكرها، وما يحدث من الطامة الكبرى من الفتنة الطائفية التي حميت نيرانها ولن تطفأ حتى يشاء اللَّه، وما كان على إثر ذلك من تصريح أوباما بأنه آن الأوان لأمريكا أن تدخل إلى سوريا، فنبأ بسقوطها كما سقطت قبلها ليبيا، وقبلهما العراق، والبقية تأتي، ومن تصريح وزيرة الخارجية الأمريكية من محاولة إرسال جنود إلى مصر لحماية الأقليات النصرانية فيها، والرغبة في تقسيم دول الأمة إلى دويلات متناحرة متقاتلة، كما بدأ الأمر في جنوب

السودان، وما يحدث هناك من تقتيل رهيب بين المسلمين والنصارى، كما قال شهود عيان بذلك، كل ذلك وغيره، يجد الناظر أن العلة الأم التي انطلقت منها كل هذه الفتنة الوحشية المدمرة، إنها هي الخروج على الحكام، إنما هو شؤم معصية اللَّه ورسوله ﷺ، وليس لها من دون اللَّه كاشفة، وما علم دعاة الضلالة تأويل الأمور؛ فهيجوا الناس ودفعوهم دفعًا إلى هذا المحظور الخطير، بفرحة وذهول الناصرين: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٩].

حتى دفع ذلك الناس إلى ما نراه في شتى الدول، حتى وصل الأمر إلى ما فعلوه اليوم بالقذافي وقتله وتعذيبه أمام الملايين على شاشات التلفاز، وواللَّه ما عليه آسى، ولكن على كسر شوكة وهيبة ولي الأمر، والحاكم بصفة عامة في شخصه، وما حدث له إنما هو نذير شؤم بأنه لن تقوم لولي أمرٍ في الأمة قائمة صحيحة.

هَبُوهُم كفارًا - كما قال العلامة الألباني - أيسركم ما حدث وما سيحدث، ما كان وما سيكون من الهلاك

والويلات التي لا يعلم ما فيها وما وراءها إلا اللَّه، والراسخون في العلم الربانيون الذين يعلمون تأويله من قبل، فَسَفَّهَهُمُ الناسُ وعادوهم وكذبوهم وجَهَّلُوهُم. إن العالم يرى الفتنة وهي مقبلة ويراها الناسُ وهي مدبرة، بعد أن أهلكتهم ودمَّرتهم فليس كل أحد له أن يتكلَّم ويُنَظِّر للأمة في الفتن العظام، إنما هم الربَّانيون، العلماء العاملون السائرون على منهج الحق: «**مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي**».

روى أبو نعيم في حلية الأولياء عن الحسن البصري قال (١٧٧٩)، (١٧٨٥): «ذهبت المعارف وبقيت المناكر، ومن بقي من المسلمين فهو مغموم واللَّه الذي لا إله إلا اللَّه هو ما يسع المؤمن إلا الحزن».

وكل ما أجملت ذكره هنا فصَّلتُه من قبل في الرسالات الثلاث في تصحيح المعتقد بفضل اللَّه، فانظرها إن شئت؛ ليكتمل لك بيان المسألة، ولِلَّه الأمر من قبل ومن بعد.

غير أن هناك مسألة مهمة، وهي هذا المرض الخطير الذي دبَّ في الأمة، والذي هو على سنن من كان قبلنا، كما روى البخاري في صحيحه (**٣٤٥٦**) ومسلم (**٢٦٦٩**) عن

أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: «**لتتَّبِعُنَّ سَنَنَ من كا قبلكم شبرًا بشبرٍ، وذراعًا بذراع، حتى لو سلكوا جُحر ضَبٍّ لسلكتموه**» قلنا: يا رسول اللَّه، اليهود والنصارى؟ قال: «**فمَنْ؟**».

هذا الأمر إنما هو المظاهرات، فإنها باب شرٍّ مستطير، ولكي تتصور هذا أقول: فعلى سبيل المثال: نحن في مصر حوالي تسعين مليونًا، ولن يكون علينا حاكم يرضى به الجميع، فإذا رفضه البعض، خرجوا متظاهرين لخلعه، فيأتي من يناسبهم، وهو في نفس الوقت يخالف الباقين، فيخرج الباقون متظاهرين لخلعه، فيأتي من يرضيهم ولا يرضي الأولين، وهكذا دواليك أبدًا، ومن ثَمَّ لن تستقيم للأمة حكومة ولا حاكم، وتفسد الأمور برمَّتها، ولا حول ولا قوة إلا باللَّه، وها أنا وأنا أكتب هذه السطور تظاهر الناس وحاصروا مكتب وزير التعليم مطالبين بخلعه، وتظاهر سائقو هيئة النقل العام من أيام وتوقفت المواصلات، وهكذا، فنحن على أبواب شر خطير، كله من شؤم مخالفة منهج اللَّه ورسوله، وسيرًا وراء مناهج الغرب الكافر، وإلى اللَّه المشتكى.

- **الفتنة و آراء الرجال:**

روى البخاري في صحيحه (٧١٠٠) عن أبي مريم عبد اللَّه بن زياد الأسدي قال: «لما سار طلحة والزبير وعائشة إلى البصرة، بعث عليٌّ عمارَ بن ياسر، و حسنَ بن علي، فقدما علينا الكوفة، فصعدا المنبر، فكان الحسن بن علي فوق المنبر في أعلاه، وقام عمارٌ أسفل من الحسن فاجتمعنا إليه، فسمعتُ عمارًا يقول: إن عائشة قد سارت إلى البصرة، واللَّهِ إنها لزوجة نبيكم ﷺ في الدنيا والآخرة، ولكن اللَّه -تبارك وتعالى- ابتلاكم، ليعلم إيَّاه تطيعون أم هي؟»، وذلك في فتنة الجمل.

والذي يؤكد خطأ عائشة رضي الله عنها: ما رواه أحمد في مسنده (٢٤١٣٥)، والبزَّار في مسنده (٣٢٧٥)، وأبو يعلى الموصلي (٤٨٦٨)، وصححه ابن حبان والحاكم وسنده على شرط الصحيح كما قال الحافظ في الفتح (١٣/ ٥٥)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٤٥٩): «رجاله رجال الصحيح»، عن قيس بن أبي حازم قال: لما أقبلت عائشة فنزلت بعض مياه بني عامر نبحت عليها الكلاب فقالت: أيُّ

ماءٍ هذا؟ قالوا: الحَوْأَب. قالت: ما أظنني إلا راجعة، إن النبي ﷺ قال لنا ذات يوم: «**كيف بإحداكنَّ تنبح عليها كلاب الحوأب؟! يُقتل عن يمينها وشمالها قتلى كثيرة، وتنجو من بعد ما كادت**» أي: بعد ما كادت تَهْلَك وَتُهْلِك من تبعها.

وأَصرح من هذا: ما رواه أحمد في مسنده (٢٧٠٧٦)، وأخرجه الطبراني في الكبير (٩٩٥)، قال الهيثمي في المجمع (٧/ ٤٥٩): «رجاله ثقات» عن علي بن أبي طالب عن النبي ﷺ قال: «**إنه سيكون بينك وبين عائشة أمرٌ**» قال: أنا يا رسول اللَّه؟ قال: «**نعم**». قال: فأنا أشقاهم يا رسول اللَّه، قال: «**لا، ولكن إذا كان ذلك فارْدُدْها إلى مأمنها**».

وكل من قال قولًا يخالف النصوص في أيامنا فهو بلا شك أقل منزلة من عائشة رضي الله عنها.

فإنه لما رفع العلم، وبُثَّ الجهل، وضَعُفت الهمم عن تعلُّم ما لا يسع المسلم جهله، أصبحت مرجعية الناس في الفتن آراء الرجال، من غير ما تحقيق ولا تأصيل للمسائل المعروضة، وهذا فيه ما فيه من المفاسد والفتن؛ بل هذا من

الأسباب الكبرى لتأجج هذه الفتنة الدهماء المُجَلِّلة، والتي يصدق عليها أنها فتنة الأحلاس، أي: الملازمة للأمة في هذه الآونة بل وفي الأزمنة القادمة، إلا أن يشاء العزيز الحكيم غير ذلك، سبحانه وتعالى، القائل: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١].

نسأل اللَّه أن يعلمنا ما ينفعنا، وأن ينفِّعنا بما علمنا، وأن لا يضلنا بما علمنا، ولا حول ولا قوة إلا باللَّه العلي العظيم.

ومن المؤسف حقًّا: أن تعلم أن كثيرًا من الدعاة يريدون أن يقولوا، غير أنهم يخشون تفرق الناس عنهم!!

قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، وقال تعالى: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران: ٦٠]

* * *

المحور الخامس:
«مَنْ يَضْرِبُ خَيْشُوْمَهَا»

روى الإمام أحمد بسند حسن في مسنده (٢٢٢٩٦) وأبو داود في سننه (٤٢٩٧) والبغوي في شرح السنة (٤١١٩) بسند فيه صالح بن رستم الهاشمي، قال أبو حاتم: مجهول، وأما سند أحمد فحسن لراويه: أبو عبد اللّه مرزوق الحمصي، وثقه ابن شاهين وابن حبان، وقال ابن معين لا بأس به، وهو في صحيح الجامع (٨١٨٣) والصحيحة (٩٥٦) من حديث ثوبان مولى رسول اللّه عن رسول اللّه ﷺ قال:

«يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها»، فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: **«بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن اللّه من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن»**. فقال قائل: يا رسول اللّه وما الوهن؟! قال: **«حب الدنيا وكراهية الآخرة»**.

قال أبو الطيب في عون المعبود شرح سنن أبي داود عند الحديث: «قوله: **«يوشك الأمم»** أي: يقرب فرق الكفر

وأمم الضلالة أن يدعو بعضهم بعضًا ؛ لمقاتلتكم، وكسر شوكتكم، وسلب ما ملكتموه من الديار والأموال، كما يدعو أكلة الطعام بعضهم بعضًا يتناولون من القصعة بلا مانع ولا منازع فيأكلوها عفوًا وصفوًا من غير تعب، كذلك يأخذون ما في أيديكم بلا تعب ينالهم ولا ضرر يلحقهم أو بأس يمنعهم.

وقوله: «**غثاء السيل**»: ما يحمل السيل من زبد ووسخ، شبَّههم به؛ لقلة شجاعتهم ودناءة قدرهم، «وليخرجن المهابة» أي: الخوف والرعب من قلوبهم. والوهن: الضعف، «حب الدنيا وكراهية الموت»: متلازمان فكأنهما شيء واحد يدعوهم إلى إعطاء الدنيَّة في الدين من العدو المبين، نسأل اللَّه السلامة والعافية» اهـ.

روى البخاري في صحيحه (٣٣٥) ومسلم (٥٢١) من حديث جابر بن عبد اللَّه عن النبي ﷺ قال: «**أعطيت خمسًا لم يُعطهن أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر**» الحديث.

كان العدو لما يسمع بمجيء النبي ﷺ وأصحابه لمقاتلتهم دبَّ الرعب في قلوبهم وعروقهم قبل ذلك بشهر، فيُنصروا قبل اللقاء، فلما سارت الأمة على منهاج النبوة

كذلك نُصروا، ولما ضلُّوا عن منهج «**مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي**» سُلِبُوا الخير كله.

وما أنسب هذا الحديث لما يحدث للأمة في هذا العام الحزين، ثورات وانقلابات كانت اللبنة الأخيرة في خراب الأمة وبناء مجد إسرائيل.

روى البخاري في صحيحه (٧١١٥) ومسلم (٢٩٠٧) وأحمد (٧٢٢٦) من حديث أبي هريرة من النبي ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل، فيقول يا ليتني كنت مكانه**» وفي رواية: «**ما به حب لقاء اللَّه ﷻ وما به شيء سوى البلاء**».

وروى ابن أبي شيبة في المصنف عن حذيفة بن اليمان قال (٣٨٤٠٣): «تكون فتنة، فيقوم لها رجال فيضربون خيشومها حتى تذهب ثم تكون أخرى، فيقوم لها رجال فيضربون خيشومها حتى تذهب، ثم تكون أخرى فيقوم لها رجال فيضربون خيشموها حتى تذهب، ثم تكون الخامسة دهماء مُجَلِّلة، تنبثق في الأرض كما ينبثق الماء».

فمَنْ للدهماء المجلِّلة التي أكلت الأخضر واليابس

وشربت الدماء؟!! من يردُّ دعاة الفتنة إلى رشدهم؟!!

روى أبو نعيم في الحلية عن أنس بن مالك قال (٨٦٤) :

«كنا مع أبي موسى الأشعري في مَسِيرٍ له، فسمع الناس يتحدثون فسمع فصاحة، فقال: ما لي يا أنس؟ هلمَّ فلنذكر ربنا، فإن هؤلاء يكاد أحدهم أن يَفري الأديم بلسانه».

أي: يكاد الرجل من فصاحته أن يُقَطع الجلد ويُفَتِّتَه بكلامه، فليس العبرة بحسن القول بل بصحة المنهج والمعتقد فقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: ٤].

إن الحب في اللَّه والبغض في اللَّه، والموالاة في اللَّه والمعاداة في اللَّه أوثق عُرى الإيمان، فمن أجَّج الفتنة مخطئًا متأولًا نسأل اللَّه له الهداية، ومن أصر على باطله، نبغضه ونمقته تقربًا إلى اللَّه تعالى.

روى اللالكائي في شرح أصول الاعتقاد عن الإمام الأوزاعي أنه قال (٣١٥) : «اصبر نفسك على السنة، وقف حيث وقف القوم، وقل بما قالوا، وكف عما كفوا، واسلك سبيل سلفك الصالح فإنه يسعك ما وسعهم» وفي هذا

الخلاص والنجاة.

• **الخروج من الفتنة بالرجوع إلى اللَّه على علم وفقه:**

طريق واحد، لا طريق غيره، ولا سبيل سواه:

روى البخاري في صحيحه (٥٨٤٤) عن أم سلمة قالت:

«استيقظ رسول اللَّه ﷺ من الليل وهو يقول: «**ماذا أنزل اليوم من الفتن؟! ماذا أنزل من الخزائن؟! من يوقظ صواحب الحجرات؟** -وفي رواية: «**ليُصلين**»- **كم من كاسية في الدنيا عارية يوم القيامة**».

وصواحب الحجرات، أمهات المؤمنين ويقمن ليصلين بالليل.

وروى مسلم في صحيحه (**٢٩٤٨**) عن معقل بن يسار عن النبي ﷺ قال: «**العبادة في الهرج كهجرة إليَّ**».

قال النووي في شرح مسلم (١٨/ ٥٥): «باب: فضل العبادة في الهرج: المراد بالهرج هنا الفتنة واختلاط أمور الناس، وسبب كثرة فضل العبادة فيه: أن الناس يغفلون عنها ويشتغلون عنها، ولا يتفرغ لها إلا أفراد» اهـ.

كذلك روى أبو داود في سننه (٤٢٤٩) عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «ويل للعرب من شرٍّ قد اقترب، أفلح من كفَّ يده».

وسنده صحيح، (٧١٣٥) صحيح الجامع.

فبالعمل الصالح تواجه الفتن وترد، كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

«ما نزل بلاء إلا بمعصية، وما رفع إلا بطاعة».

وعلى رأس الأعمال: الرجوع إلى الأمر العتيق.

وروى أحمد في مسنده (٥١١٥) بسند صحيح كما في صحيح الجامع (٢٨٣١)، عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال:

«بعثت بين يدي الساعة بالسيف حتى يُعبد اللَّه وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذل والصغار على من خالف أمري».

كذلك روى الإمام أحمد في مسنده بسند صحيح كما في صحيح الجامع (٤٢٣)[1] عن ابن عمر أيضًا عن النبي ﷺ

(١) انظر كلام المناوي على الحديث في فيض القدير (ح: ٥١٤).

قال: «**إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلط اللَّه عليكم ذلًّا، لا ينزعُهُ حتى ترجعوا إلى دينكم**».

غير أن التساؤل عن كيفية هذا الرجوع وهذه المرجعية؟!؛ ولأن خير ما يُفَسَّرُ به كلامه ﷺ هو كلامه ﷺ.

فكما في السلسلة الصحيحة (٣١٦٥) من حديث أبي واقد الليثي قال رسول اللَّه ﷺ: «**إنها ستكون فتنة**»، فقالوا: يا رسول اللَّه: كيف نصنع؟ قال: «**ترجعون إلى الأمر الأول**».

وهو منهج الحق: «مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي».

كذلك ما رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٣٨٢٩٦) عن حذيفة بن اليمان قال: «تكون فتنة تُقبل مشبهة وتدبر منتنة، فإن كان ذلك فالبَدُوا لبُودَ الراعي على عصاه خلف غنمه، لا يذهب بكم السيل».

اعتزال الفرق والفتن والنجاة بالهرب بالنفس، وتوطينها على طاعة اللَّه؛ لتنجو وينجو بطاعتك غيرك، فإن للطاعة بركة تعم، كما أن للمعصية شؤمًا يعمُّ.

روى ابن ماجه في سنن في الفتن (٣٩٥٧)، وهو في صحيح ابن ماجه للألباني (٤٢٨)، وأبو داود في السنن في الملاحم (٤٣٤٢) عن عبد اللَّه بن عمرو، أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**كيف بكم وبزمان يوشك أن يأتي، يُغَرْبَلُ الناس فيه غربلة وتبقى حُثالة من الناس قد مَرَجَتْ عهودهم وأماناتهم فاختلفوا وكانوا هكذا؟**» -وشَبَّكَ بَيْنَ أصَابعه- قالوا: كيف بنا يا رسول اللَّه! إذا كان ذلك؟ قال: «**تأخذون ما تعرفون، وتَدَعون ما تُنكرون، وتقبلون على خاصتكم، وتذرون أمر عوامِّكم**».

وروى ابن أبي شيبة في المصنف في كتاب الفتن عن علي بن أبي طالب قال: (٣٨٨٨٩): «إني أنا فقأت عين الفتنة، إن الفتنة إذا أقبلت شبَّهت، وإذا أدبرت أسفرت، وإنما تحوم الفتنة كحوم الرياح يصبن بلدًا ويخطئن آخر، فانصروا أقوامًا كانوا أصحاب رايات يوم بدر ويوم حنين تُنصروا وتؤجروا، ألا إن أخوف الفتنة عندي عليكم: فتنة عمياء مظلمة، خصَّت فتنتها، وعمَّت بليتها، أصاب البلاء من أبصر فيها، وأخطأ من عمي عنها، يظهر أهل باطلها على أهل حقها، حتى تملأ الأرض عدوانًا وظلمًا، وإن أول

من يكسر غِمْدَها، ويضع جبروتها، وينْزع أوتادها، اللَّه رب العالمين»، فليس لها من دون اللَّه كاشفة، فلا تُسْخِطوا ربكم عليكم، وامضوا حيث تؤمرون.

كذلك روى ابن أبي شيبة عن الفقيه محمد بن الحنفية، وهو محمد بن علي بن أبي طالب أنه قال (٣٨٣٢٦): «رحم اللَّه امرأً كفَّ يده، وأمسك لسانه وأغنى نفسه، وجلس في بيته، له ما احتسب، وهو يوم القيامة مع من أحب، ألا إن الأعمال أسرع إليهم من سيوف المؤمنين، ألا إن للحق دولة يأتي بها اللَّه إذا شاء».

واعلم أن اللَّه تعالى قد أخذ نبيه بشؤم معصية الرماة يوم الأحد، وهو أفضل الخلق عنده، فكيف يُظن باللَّه أنه يأتي بدولة الحق، والأمة في غاية البعد عن المنهج الحق؟!

قال تعالى: ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الصافات: ٨٧]

وقال: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ [نوح: ١٣].

نسأل اللَّه تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، أن يُجنِّبنا مضلات الفتن ما ظهر منها وما بطن، وأن لا يؤاخذنا بما فعل السفهاء الجاهلون منَّا، وأن يكشف الغُمَّةَ عن الأمة،

وأن يرفع الخوف والذعر، ويؤمن السُّبل، ويحمي الذرية، وأن يولي علينا الصالحين، وأن يُقيِّض لهذه الأمة أمرًا رشيدًا يُعزُّ فيه أهل طاعته، ويؤمر فيه بالمعروف وينهى فيه عن المنكر، وأن يُنزل علينا رحمته وفضله ومنِّه سبحانه البرِّ الرحيم قال تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١١٨﴾ [المائدة: ١١٨].

هذا وباللَّه التوفيق والسداد والعصمة، ولا حول ولا قوة إلا باللَّه العلي العظيم. سبحانك اللَّهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

وآخر دعوانا أن الحمد للَّه رب العالمين.

وكتب

أبو عبد الرحمن عيد أبو السعود الكيال

باحث بالدكتوراه كلية الشريعة جامعة الأزهر

وكان الانتهاء منه صباح يوم الثامن عشر

من ذي القعدة لعام ١٤٣٢ /هـ

والموافق السابع عشر من أكتوبر لعام ٢٠١١ /م

فهرس الكتاب

إهداء ٣
مقدمة ٤
المحور الأول: «الحكم على الشيء فرع عن تصوُّره» ١٤
المحور الثاني: «ليس كلُّ علمٍ يُثْمِرُ البركة، ولا كلُّ عالمٍ يُؤْخَذُ بقوله» ٢٦
• أولًا: العلماء صحابة رسول اللَّه ﷺ ومن اقتفى آثارهم فحسب. ٢٦
• ثانيًا: العلم هو الآثار ٢٧
• ثالثًا: الناس عند علمائهم كالصبيان في حجور أمهاتهم. ٣١
• رابعًا: من يُوجِّهُ الناس في النوازل والفتن؟! ٣٦
• خامسًا: الفقه في الدين خيرٌ من كثير العمل . ٣٩
• سادسًا: الدعوة إلى اللَّه على بصيرة معناها وضابطها ٤١
المحور الثالث: «الناس بين جلال العلم، ودناءة الجهل» ٥٠

• الجهل والفتن توأمان ٥٤
المحور الرابع: «فتنة الأمة بين صدر الإسلام والواقع المعاصر» ٦١
• أول فتنة في الصحابة الخروج على عثمان ثم قتله ٦٤
• فائدة مهمة ٦٥
• الفتنة وآراء الرجال ٧٠
المحور الخامس: «مَنْ يَضْرِبُ خَيْشُوْمَهَا» ٧٣
• الخروج من الفتنة بالرجوع إلى اللّٰه على علم وفقه ٧٧
فهرس الكتاب ٨٣

❊ ❊ ❊